الموسم

إخوان الصفاء

عمر الدسوقي

مقدمة:

في أواسط القرن الرابع عشر الهجري ذهبت سطوة الخلافة العباسية واستبد بالخلفاء مواليهم من فرس وديلم وترك، وساموهم الخسف وسوء العذاب، فاستقل كثير كم الأمراء عن بني العباس أسسوا دويلات صغيرة كآل بويه، وآل حمدان، والساسانيين وغيرهم، ولم يبقى للخليفة من مظاهر القوة شيء .

بيد أن هذا الانحطاط السياسي في الدولة لم يمنع الحياة العقلية من الازدهار لتنافس الأمراء في تقوية دويلاتهم علميا وأدبيا، فما الشعر ونضج التفكير ، واشتدت حركة النقل والبحث في العلوم الفلسفية على اختلاف شعبها ثم هضمها وصبغها بالصيغة الإسلامية وكان من عواقب الانحطاط السياسي للدولة العباسية تكوين كثير من الجماعات السرية وغير السرية التي تحاول القضاء المبرم على العباسيين حتى تضع غيرهم مكانهم ، أو تواجد لنفسها كيانا مستقلا ، ومن هذه الجمعيات التي ظهرت في القرن الرابع الهجري (جماعة إخوان الصفاء) وهم من الشيعة الباطنية الذين لم يرضوا عن الخليفة العباسي كما لم يرضوا عن الخلافة الفاطمية في مصر.

وحاولوا قلب النظام السياسي بقلب التفكير العقلي وإيجاد ثقافة جديدة يعتنقها شباب عصرهم مقتفين في ذلك أثر الفيثاغورثيين وأفلاطون .

ومن المعلوم أن الفيثاغورثيين كانوا جماعة سرية إصلاحية حانقة على نظام الحكم اليوناني وأنهم حاولوا تغييره * بخلق مذهب جديد ونظريات حديثة عن العالم ونشأته داعيين إلى الزهد والتقوى .

ومن المعلوم كذلك أن أفلاطون كان ساخطا على حكومة أثينا .

فلا الإستقراطيون أرضوه لما يرتكبونه من ظلم وجور ، ولا الديمقراطيين حققوا آماله للفوضى التي ضربت خيامها في أثينا ؛ ولذلك جد في الوضع منهج جديد للحكومة في كتابه الجمهورية وإن كان قد فشل حينما حاول تطبيقه علميا أما إخوان الصفاء فقد نالوا شيئا من النجاح لأنهم من الإسماعيلية بل إن رسائلهم هي دستور هذه الطائفة .

من هم إخوان الصفاء ؟

لقد أحاطت هذه الجماعة السرية نفسها بسياج متين من الكتمان و يقولون في ذلك: «إننا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوي السلطة، ولا حذرا من شغب الجمهور من العوام ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا» [٢].

لذلك حار الناس قديما وحديثا في معرفة أسمائهم ، ولولا ما نقله القفطي عن أبي حيان التوحيدي[٣] في هذا الصدد وتعداده لبعض الأسماء المشهورة بينهم لعمى علينا الأمر فقد ذكر في أثناء حديثه عن زيد بن رفاعة (أنه أقام بالبصرة طويلا وصادق بها جماعة لأصناف العلم

(*) لم نجد بين أيدينا شيئا مشبعا عن أخوان الصفا ودراسة رسائلهم ومدى تأثيرهم بالمذاهب الفلسفية اليونانية و لذلك اعتمدنا أولا وقبل كل شيء على قراءة هذه الرسائل، واستنباط ما يمكن أن يفيدنا في هذه الدراسة المختصرة. ومن المراجع عليها :

١- تاريخ فلاسفة الإسلام لدى بور .

٢- رسالة صغيرة بمكتبة الجماعة الأمريكية بيروت للسيد عبد اللطيف الطيباوي .

٣- كتاب مفكري الإسلام لكردي في carra de vaux

٤ مقدمتا الدكتور طه حسين بك وأحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفاء .

٥- كتاب الدعاية الإسلامية للسير توماس أرنو لد وما ورد فيه خاصا بطائفة الإسماعيلية .

(١) أثرت هذه الجماعة اسم إخوان الصفالنفس،ا كانت متحدة ممتزجة تسير نحو هدف واحد .وكان عندهم شيء من الزهد والتصوف .والتصوف يمت بسبب كبير إلى صفاء النفس، وقد تحدثوا كثيرا عن الصداقة وكيف يختار الصديق - أي الذي سيدخل معهم أما صيغة الاسم فأقدم ما تعرفه عنها ما ورد في النقائض:

لعمرك ما آس طفيل بن مالك بني عامر إذ ثابت الخيل تدعى

ووفد إخوان الصفـــاء بقر زل يمر كمريـخ الوليـد المفـــزع

ثم وردت هذه الصيغة في كتاب كلية ودمنة في باب الحمامة المطوقة .وقد جاء في الرسائل ج ١ ص ٣ .ما نصه (فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة المذكورة في كتاب كليلة ودمنة) . وقد كان الإخوان معجبين بهذا الكتاب وعنه اقتبسوا كثيرا من الحكايات، فلا يستبعد أن يكون قد أوحى إليهم بهذه الصيغة. أما السبب الحقيقي فهو ما بين الإخوان من اتحاد وامتزاج وصفا واتقان في الهدف (طيباوى)

(٢) رسائل ج ٤ ص ٢١٥ ولكن هذا السبب، فقد كانوا يخافون السيف و أن يقعوا في أيدي الظالمين - رسائل ج٤ ص١٠١

(٣) هو أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس الصوفي كان متفننا في جميع العلوم يشبه الجاحظ في علمه وأدبه، ويقال له شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلسفة وقال عنه ياقوت : (كان يتأوله والناس على ثقته من دينه) وقد حكم المتأجرون بزندقته فطلبه الوزير المهلبي، وقد درس الفلسفة على يد عدي بن زيد، وأبي سليمان السجستاني محمد بن طاهر المنطقي، وتوفي في سنة ٢٨٠ د وقيل في سنة ٤٠٠ ببغداد فقيرا معدوما .

وأنواع الصناعة. منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي (ويعرف بالمقدسي) وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني وأبو الحسن العوفي و زيد بن رفاعة.

مكانهم وزمانهم:

كانت البصرة مركزهم الرئيسي وإن لم يذكر الإخوان شيئا من ذلك في رسائلهم بيد أبن القفطي قال: (وقد أقام زيد بن رفاعة بالبصرة زمنا طويلا وصادق بها جماعة لأصناف العلم...الخ)، وهناك ما يؤيد رأي وهو أن البصرة كانت منذ أسست عاصمة العلوم الإسلامية ومحط كثير من رجال الفقه ، فيها نشأ الحسن البصري ورؤساء المعتزلة، وفيها قام عبد الله بن ميمون بفتنة القرامطة أصل مذهب الإسماعيلية في أواخر القرن الثالث الهجري ، وفيها قام أبو الحسن الأشعري يتنصل مع الاعتزال ، وكانت فيها حلقات العلم من كل فن وفي مربدها ينشد الشعراء قصائدهم: فلا عجب إذا إن كانت البصرة مأوى إخوان الصفاء).

هذا وقد كان للجماعة أنصار في مختلف البلدان ولهم دعاة يبشرون بمذهبهم بطرق منظمة، وفي هذا يقولون (إن لنا إخوانا وأصدقاء من كرام الناس وفضائلهم متفرقين في البلاد) ويظهر أنه كان في بغداد جماعة أخرى على اتصال وثيق بإخوان الصفا وعنها يقول أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات : (من أعضائها أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني ، وأبو زكريا العميري والعروضي أبو محمد المقدسي ويحيى بن عدة وأبو إسحاق الصابي ومانى المجوسي) ويظهر أن أبا سليمان المنطقي السجستاني كان رئيس هذه الجماعة فكثيرا ما يقول أبو حيان (دارت في مجلس أبي سليمان ... مناظرات)، ويقول: (أملى علينا أبو سليمان)[١] ويظهر أيضا أن أمر هذه الجماعة الفلسفية كان على شاكلة أختها في البصرة سريا : فقد ثبت أن أبا العلاء المعري كان يختلف إلى هذه الجماعة بدار عبد السلام البصري أيام الجمع حينما قدم بغداد وهم الذين سماهم إخوان الصفاء حين يقول :

كـــم بـلدة فارقتها ومعـاشـــر ... يذرون من أسف على دموعا
وإذا أضاعتني الخطوب فلن أرى ... لوداد إخوان الصفاء مضيعا
خاللت توديـــع الأصدقاء للنـوى ... فمتى أودع خـــلى التوديعا[٢]

وقد كان لاحتكاك أبي العلاء مع تلك الجماعة وتصرفه على مختلف النظريات الفلسفية والدينية والصوفية الأثر الأكبر

في اتجاه أفكاره وفلسفته . فيقول الأستاذ ماكدونالد :((يظهر أن أبى العلاء اتصل بفئة مثل إخوان الصفا إن لم يكونوا هم أنفسهم))[٣]

ومما تقدم نرى أن إخوان الصفاء كان مركزهم الرئيسي بالبصرة وكان لهم فرع قوي بغداد، وأنصار ودعاة في مختلف البلدان والأنصار.

---

(١) المقابسات ص ٥٧

(٢) تجديد ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين بك ص١٥١

(٣) Muslim Theology ص ١٦٧

أما الزمن الذي وجد فيه الإخوان فهو أواسط القرن الرابع الهجري : ومن العسير تحديد السنة ، بيد أن هناك ما يرجح أن الرسائل ألفت فيما بين سنتي ٣٣٤هج و٣٧٣هج ، لان بدء ظهورهم كان على أثر سيطرة آل بيويه على بغداد سنة ٣٣٤هج ، ولم تسمع بهم قبل التاريخ، ومن الجائز قد تأسست قبل ذلك وبقيت في طي الكتمان ، ولم تتجرأ على إظهار الرسائل إلا بعد هذا التاريخ[١] .

نظام جماعتهم:

كانت جماعة إخوان الصفاء تتكون من أربع طبقات: الأولى شبان يتراوح عمرهم بين خمس عشرة وثلاثين سنة، وهم الذين يسمونهم في رسائلهم بالإخوان الأبرار الرحماء.

ويظهر أن الرسائل قد ألفت لهذه الطبقة لأن الخطاب فيها موجة دائما إلى الأخ البار الرحيم.

أما الطبقة الثانية فرجال بين الثلاثين والأربعين يتلقون الحكمة الدنيوية، ويظهر أنه كان يعهد إليهم مراعاة الإخوان ومساعدتهم والتحقق عليهم، وهم الذين يسمّون في الرسائل بالإخوان الأخيار الفضلاء. والطبقة الثالثة رجال بين الأربعين والخمسين من العمر والنهى والسلطة بين الأخوان ،وإليهم يعهد بدفع العناد والخلاف.

عمد ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق والمداراة في إصلاحه)، وهم الذين يسمّون بالإخوان الفضلاء الكرام.

والطبقة الرابعة وهي مرتبة من يزيد على السنتين سنة وهي أعلى المراتب في نظامهم ومن يصل إليها يكون فوق الطبيعة والشريعة والقاموس، ويكون ذا كشف يستطيع به المشاهد (أحوال القيامة من البعث والنشر والحساب والميزان)[٢].

والآن اكيف يقبل المرشح لعضوية هذه الجماعة؟ تجيبنا الرسائل : (أنه ينبغي لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا في البلاد إذا أرادهم أحدهم أن يتخذ صديقا مجددا أو أخا أن يعتبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه و اعتقاده ليعلم . هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أو لا يصلح لأن الناس أقواما طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال، وعادتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة حائرة)[٣].

وكانوا يتحرون عن الشخص الذي يريد الانضمام إليهم كل التحري، ويحذرون إخوانهم من الاغترار بالظواهر:(وأعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق، ويدلس عليك بشبه الموافق، ويظهر لك المحبة وخلافها في صدره.

فانظر من تصحب وتعاشر ولا تغتر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها... بل ينبغي أن

---

(١) الطيباوي

(٢) رسائل ج ٤ ص ١١٩-١٢٠

(٣) رسائل ج٤ ص ١٠٧

تنتقده وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة)[١]... (لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدنيا والدين جميعا وهم أعز من الكبريت الأحمر ، وإذا وجدت منهم واحدا فتمسك به فإنه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة وابذل له نفسك ومالك وافرش له جناحك وشاوره في أمرك وإن هفا هفوة فاغفر له)[٢].

وكانوا يبحثون عن الإخوان على أن يعاون الغنى منهم الفقير والمتعلم الجاهل ويؤثرون أصدقائهم على أنفسهم وأولادهم وأزواجهم ، لأن محبة هؤلاء لمصلحة دنيوية ، أما الاخوان الذين انضموا إليهم فيحبونهم لله .

فإذا ما قبل العضو قرءوا عليه خطبة فيها دعوتهم وغايتهم ((وينبغي لإخواننا إذا حضروا المجلس ومعهم أخ مستجيب يستجيب أن يقرءوا عليه هذه الخطبة : اعلموا - أيها الإخوان - أيدكم الله وإيانا بروح منه، وهدا منكم ثلحق ، وجعلكم من أتباعه ، وسهل لكم سبيل الخير ، وأرشدكم من المزور الشيطان ووقاكم جور السلطان ونكبات الزمان ونوائب الحدثان ، ووفقكم لقبول نصيحة الإخوان، غني ودود منان .

اعلموا أن كل دولة لها وقت منه تبتدئ ، ولها غاية إليها ترتقي ، وحد إليه تنتهي ؛ وإذا بلغت أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهايتها، أخذت في الانحطاط والنقصان وبدأ في أهلها الخذلان ، واستأنف في الأخرى القوة و النشاط والانبساط والظهور ، وجعل كل يوم يقوى هذا ويريد، ويضعف ذلك وينقص، إلى أن يضمحل الأول المتقدم ويتمكن الحادث المتأخر ... وقد ترون ـــ أيها الأخوان - أنه قد تناهت قوة أهل الشر وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي قوة أهل الشر وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط.

واعلموا أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، ومن أهل البلاد إلى أهل بلد... واعلموا أن الدولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام أخيار فضلاء يجتمعون في بلد ، ويتفقون على رأي واحد ودين واحد ، ومذهب واحد ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون . ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بغضا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم[٣].

وقد كان للجماعة دعاة ومبشرين يجتهدون في اختيار أعضاء جدد يضمونهم إلى صفوف الإخوان وقد كانوا يدبرون تدبيرا خاصا على الدعاية :(واعلم أيها الأخ أيدك الله وإيانا بروح منه أن لنا إخوانا وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد ، فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال ، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتجار والتناء[٤] ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين ، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس .

(١) رسائل ج ٤ ص ١٠٨ (٢) رسائل ج ٤ ص ١٠٩ (٣) رسائل ج ٤ ص ٢٣٥

(٤) الدهاقين جمع دهقان بكسر الدال وضمها وهو حاكم الاقليم المتصرف فارسية معربة. والتناء بالكسر جمع تائن من تنأ بالمكان أي أقام به ومعناه المرابط.

وقد ندبنا لكل طائفة منهم آخا من إخواننا ممن ارتضينا في بصيرته ومعرفة ينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة، وقد اخترناك أيها الأخ البار الرحيم لمعونتهم فامض على بركة الله وحسن توفيقه إلى آخ من تريده، ، وتوصل إليه بالرفق على خلوة وفراغ من مجلسه وطيبة من نفسه فاقرأ عليه منا التحية والسلام ، وبشره بما يسره من نصيحة الإخوان وعرفه شدة شوقنا إخاءه ومودته وولايته، ثم اقرأ عليه هذه الخطبة (المتقدمة الذكر) وعرفه معانيها وفهمه مغزاها ومقصدها[١]...(فإن وقعت هذه التذكرة منه مكانها من القبول وسمعت نفسه إلى ما أشرنا إليه فذلك هو الذي تريده، وإن توقف وقال ما علامة ما تقولون ، وما تصديق ما تزعمون من الرأي والحديث ؟ فتقول عندنا دلائل واضحة، فإن أراد آخونا الفاضل الكريم فليبعث إلينا ثقة من ثقاته وأمينا من أمنائه، ومن يشاكلنا في العلوم والمعارف لتتضح له حقيقة ما قلنا[٢] ويظهر أن هؤلاء الذين يوجه إليهم الأخ البار الرحيم والمنتشرين في أنحاء الأرض كانت ميولهم وأغراضهم السياسية تشبه ميول إخوان الصفاء وأغراضهم، ولم يكونوا قد انضموا إليهم بعد ، أو لم يعلموا بوجودهم ...(واعلم أن من إخواننا وأهل شيعتنا طائفة أخرى بوجودنا شاكون، وفي بقائنا متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا، وطائفة أخرى من ببقائنا موقنون، لكنهم منتظرون لظهور أمرنا مستعجلون لمجيء أيامنا، متشهون نصرة حزبنا)[٣].

- ٢ -

هل هم شيعة باطنية ؟

لقد أقر أخون الصفا على أنفسهم بالتشيع في غير ما موضع من الرسائل.

فمن ذلك قولهم عن السبب الذي حداهم لكتابة هذه الرسائل : (لكيما إذا نظر فيها إخواننا وسمع قراءتها أهل شيعتنا وفهموا بعض معانيها ، وعرفوا حقيقة ما هم مقرون به من تفضيل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنهم خزان علم الله وتوارثوا علم النبوات ، وتبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم والمعرفة والفهم والتمييز والبصيرة في الآفاق)[٤]

ومنها (وأعلم يا أخي بأن لكل نفس من المؤمنين أبوين في علم الروح كما أن لأجسادهم أبوين في عالم الأجساد ، كما قال رسول الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : أنا وأنت يا علي أبو هذه الأمة ،وهذه الأبوة روحانية لا جسمانية)[٥]

هذا وقد عقدوا فصلا خاصا بينوا فيه الطوائف التي تنتمي إلى الشيعة ، وقد انتقدوا بعضها واستعرضوا بعضها ، وأخذوا يتبرءون ممن يدعي التشيع وهو يرتكب المنكرات ويقترف الموبقات ويحملون على من يقول بأن المهدي المنتظر مستتر من خوف المخلفين كما أنهم حملوا من يبكي الأموات من أهل البيت حملة شعواء ، وهناك ما يقولون (إن قوما من أشرار

---

(١) رسائل ج ٤ ص ٢٢٦ (٢) رسائل ج ٤ ص ٢٣٨ (٣) رسائل ج ٤ ص ١٩٨
(٤) رسائل ج ٤ ص ٢٣٤ (٥) ج١ ص١٥٧

الناس جعلوا التشييع سترا لهم عما يحذرون من الأمرين عليهم بالمعروف ...وإذا نهوا عن المنكر فعلوه بارزوا بإظهار التشييع واستعاذوا بالعلوية على من ينكر عليهم أو ينهاهم لبأس ما كانوا يعملون . ومن الناس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم وهم أبرياء بنفوسهم منا ويسمون أنفسهم بالعلوية وما هم من العلويين، ولكنهم من أسفل السافلين، لا يعرفون من أمرنا إلا نسبة الأجساد...فهم أبعد الناس عن أهل ملتنا، وأهدى الناس لشيعتنا وأغفل الناس عن حقيقة أمرنا وأسرار حكمتنا... ومن الناس طائفة قد جعلت التشييع مكسبا لهم ومثل النائحة والقصاص لا يعرفون من التشيع إلا التبري والشتم والطعن واللعن والبكاء وترك طلب العلم وتعلم القران وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور كالنساء الثواكل ، يبكون على فقد أجسامنا [١].وهم بالبكاء على أنفسهم أولى . ومن الشيعة من يقول: إن الأئمة يسمعون النداء ويجيبون الدعاء، ولا يدرون حقيقة ما يقرون به وصحة ما يعتقدون. ومنهم من يقول : إن الأمام المنتظر مختف من خوف المخالفين .

كلا ! بل هو ظاهر بين ظهرانيهم يعرفهم وهم له منكرون كما قيل : يعرفه البحث من جنسه وسائر الناس له منكر[٢] نرى مما تقدم أنهم لا ينكرون التشيع ولكنهم يريدونه على شكل خاص، وأنهم يتبرون من هؤلاء الذين لوثوا اسمهم وارتكبوا المنكرات والموبقات وادعوا لأنهم علويين فهم بذلك فرقة من الشيعة ترمي إلى تعاليم خاصة وغايتها إصلاح الطائفة وتهذيبها بالتعليم ونرى كذلك أنهم يقولون بالمهدي المنتظر وأنه كان موجودا إبان تاليف هذه الرسالة، ولعله أحد من ألفها كما يذهب إلى ذلك بعض المستشرقين وأنهم كانوا يقولون بأن عليا وصى النبي عليه السلام .

وليس في ذلك أصرح من قولهم في باب مخاطبة المتشيعين: (ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيته الطاهرين، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين[٣]).

أما نسبتهم إلى الإسماعيلية الباطنية فلم تثبت بصفة جازمة ، بيد أن من يدرس آراء هذه الطائفة وآراء إخوان الصفاء يجد تشابها عجيبا ، وإن كان الأولون أكثر صراحة من الآخرين على أن الأستاذ كازانوفا يقول : (لقد وجدت مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس مفقودة الصفحات الأولى والعنوان ، وتقرأ على الصفحة السادسة منها ما يلي : فصل من رسائل إخوان الصفا ، وفي ابتدائها : القول على السر المخزون والعلم المصون من باطن الرسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفا.

(١) هذا يؤيد من يقول عن السائل أملاها بعض الأئمة من ال البيت

(٢) الرسائل ج٤ ص١٩٩

(٣) السائل ج٣ ص ٢٤٢

ووردت فيها الجملة المشهورة: اعلم يا أخي أيدنا الله وإياك بروح منه التي يتكرر ذكرها في كل صفحة من الرسائل).

وقد جعل كازونوفا أن هذه الرسالة الجامعة مصطبغة بالصبغة الإسماعيلية ، متلبسة بشمول الألوهية ، ونظرية الفيثاغورثيين في الأعداد .

ويقول في ذلك (ما أراني إلا مصيبا في القول بأن فلسفة الإسماعيلية جميعها مبثوثة في رسائل إخوان الصفاء : القول بالإمام المنتظر الذي سوف يظهر ليغيد السلام إلى العالم يمثل امتزاج نظريات الأفلاطونية الحديثة بالاعتقاد بعودة المسيح [١]).

وقد جاء في أحد أعداد جريدة آسيا فصل هذا عنوانه : (بحث جديد على الإسماعيلية أو الباطنية بالشام المعروفين بالحشاشين).

وقد قال كاتبه ما يأتي : (إن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين هو من أجل وأفخم رؤساء الإسماعيلية ، وقد خدم في آلموت المقدمين الذين كانوا قبله ، وزاول علوم الفلسفة وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف ، وأنكب على المطالعة رسائل إخوان الصفا) .

ويقول المحب في خلاصة الأثر (وحاصل تلك السائل ليس إلا مذهب الباطنية الإسماعيلية. وهم أنحاء شتى ومعظم القول في هذه الشيعة ، من شيعتهم تناسخ الأرواح ، وادعاء حلول الباري تعالى في الأنبياء المشهورين ثم ادم إلى محمد عليهم السلام وفي آئمة آل البيت - وآخرهم المهدي - ويعظمونه على الجميع والإسماعيلية يوافقون الأمامية في ذلك [٢]).

وقد اثبت تاريخيا أن المغول عند فتحهم لقلعة (آلموت) مركز رؤساء الإسماعيلية عثروا على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفاء [٣].

وقد جاء في رسالة الإنسان والحيوان المطبوعة في مصر خطأ تحت عنوان الجامعة : ((نحن لبسنا السواد وطلبنا بثأر الحسين بن علي عليهما السلام وطردنا البغاة بني مروان ... ونحن نرجوا أن يظهر من بلادنا الإمام المنتظر [٤].

وقد تضافر الكتاب قديما وحديثا على نسبة هذه الجماعة إلى الإسماعيلية الباطنية. ومنهم ابن تيمية وابن حجر والألوسي وغيرهم ، وقد دعاهم إلى ذلك أن نشاطا لإخوان في بث تعاليمهم يشبه نشاط الإسماعيلية وجدهم في نشر مذهبهم وتشكلهم بما يلائم مصلحتهم، ولبسهم لكل حال لبوسها، ومخاطبتهم الناس على حب أهوائهم و آمزجتهم ، واستعمالهم السحر والطلاسم

---

(١) رسالة الطيباوي ٧٢ ٧٢

(٢) خلاصة الاثر ج٤ ص٦و٧ الطيباوي ص ٧٢

(٣) أحمد أمين في مبادئ الفلسفة

(٤) الرسالة الجامعة ص٨٣

والرقى والتعاويذ في إقناع الناس بمقدرتهم ومبلغ عملهم [١] .

ثم في تكتمهم وشدة حرصهم على ألا يطلع على مذهبهم إلا من دخل في شيعتهم وقولهم بالتقية والإمام المنتظر ووصاية علي رضي الله عنه...الخ

تسامحهم الديني :

ومما يقوى صلتهم بالإسماعيلية رحابة صدرهم لجميع المذاهب والديانات والعلوم فقد ثبت أن الإسماعيلية في أوائل دخولهم بلاد الهند [٢] كانوا يوافقون البوذيين على عقائدهم حتى يستميلوهم إليهم ، ثم يكملون النقص في هذه العقائد بنظرية الإسماعيلية الأساسية، وهي قداسة علي رضي الله عنه وعودته ، ثم يجعلون برها محمدا ، وصنعوا عليا ، وادم سيفا [٣]

أما آخوان الصفا فكانوا أمام جميع المذاهب والديانات غير متعصبين : ((وبالجملة ينبغي لإخواننا- أيدهم الله تعالى - ألا يعادوا علما من العلوم أو يهجروا كتابا من الكتب والا يتعصبوا على مذهب من المذاهب : لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها[٤]).

ويقولون)) بأن غرض الأنبياء عليهم السلام وواضعي النواميس اللاهية أجمع غرض واحد وقصد واحد وإن اختلفت شرائعهم وأزمان عباداتهم وأماكن بيوتهم وصلواتهم كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد في حفظ الصفحة الموجودة واسترجاع الصحة المفقودة وإن اختلفت علاجاتهم باختلاف الأمراض العارضة للأبدان [٥]).

فالتوراة والإنجيل والقران وغيرها من الكتب الدينية السماوية وغير السماوية عندهم سواء.

وكأني بهم يحاولون أن يستو عبوا الديانات كلها على دين واحد ومذهب واحد وليس هناك أوضح من قولهم ((فالله أرسل روحه إلى كل الناس ، لا فرق بين النصراني والمسلم وبين الأسود والأبيض) وقد ثبت أن جمعية بغداد التي هي فرع من جمعية أخوان الصفا والتي كان يختلف إليها أبو العلاء المعري كانت تجمع السني والشيعي واليهودي والنصارى والصابئي والدهري .

وقد حدثنا أبو حيان التوحيدي في المقاسات قائلا (إن من أعضائها يحيى بن عدي وأبو إسحاق الصابي وأبو إسحاق النصيبي وماني المجوسي... الخ).

وهذا دليل واضح على رحابة صدرهم وعظم دعايتهم وتعدد طرق تبشيرهم [٦]

---

(١) راجع ما كتبه السير توماس أرنولد في كتابه الدعاية الإسلامية .لتتعرف مدى نجاح الإسماعيلية في نشر تعليمهم . وإدخال الهنود البوذيين في ملتهم واستعمالهم شتى الوسائل والحيل وتقيد باسمائهم . ووازن بين هذا وبين ما جاء في الرسائل من الخطب الخاصة لكل صنف من الناس ومن استعمالهم السحر والطلاسم والنجوم في اقناع خصومهم

(٢) أول من دخل الهند من الإسماعيلية هو عبد الله اليمني الإسماعيلي جاءها حوالي ١٠٦٧ وتبعه نور الدين الذي سمي باسم نور ستاجر . وقد قدم من ألموت إلى جوجرات في حكم الملك الهندي سدهاراج (١٠٩٤ـ١١٤٣ م)

(٣) كتاب الدعاية الإسلامية للسير توماس ارنولد و ترجمة الكتاب في فصل عن انتشار الإسلام بالهند

(٤) الرسائل ج٤ ص١٠٥

(٥) ج٢ ص١٢٠

(٦) رسالة الطيباوي ص ٦٥

٣-
رسائلهم

هي موسوعة ضمت بين دفتيها مبادىء العلوم التي كانت معروفة في البلاد العربية حتى القرن الرابع الهجري ولا سيما تلك التي ترجمت من اليونانية .

وقد اعترف إخوان الصفاء بأنهم ألفوها كنماذج ومقدمات للعلوم فلم يتوسعوا في بسط قضاياها ويقولون في ذلك: (قد علمنا إحدى وخمسين رسالة في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائق الحكم كل واحدة منها شبه المدخل والمقدمات والأنموذج[١]). ويظهر أنهم ألفوها للإخوان الأبرار الذين هم أولى طبقات هذه الجماعة ولم يقتصروا فيها على مبادئ الفلسفة والعلم وإنما خلطوها بكثير من الخرافات والأساطير وحاولوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة محاولين أن يجدوا من آيات القران الكريم والأحاديث النبوية ما يؤيد نظريات أفلاطون وأرسطو وأفلاطون وغيرهم وخير ما قيل في وصفها رأى أبي حيان التوحيدي: (هي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية وهي خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات) وذلك إنهم قالوا: (إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية) وزعموا (انه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال): وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق المهملة.[٢] والواقع يثبت رأي أبى حيان فالرسائل لا تعمق فيها ولا نظام يربط بين فصولها وفيها تكرار وحشو وعندي أن الرسائل كانت بمثابة موسوعة تبسط فيها المسائل الفلسفية الأولية بأسلوب يوافق عقلية العامة .وحتى لا ينفر هؤلاء من الفلسفة اخذ مؤلفوها يستشهدون بالايات والأحاديث الكريمة وبأقوال من التوراة والإنجيل وينسبون أشياء إلى نوح وإبراهيم وعيسى، ويروون قصصا وأساطير إذا حاولوا البرهنة على مسألة من المسائل بدلا من استعمال الأسلوب المنطقي الفلسفي فإنك لا ترى سوى أساطير تحكى عن الأنبياء وال البيت وسقراط وإبراهيم ونوح وأفلاطون وأرسطو وفيثاغورث وما قاله كل منهم وما عمله كل[٣].

وتخرج من هذا الموضوع إذا بحثته بحثا علميا كما ابتدأت فيه دون أن تقتنع ولكن عقلية العامة يوافقها هذا الأسلوب تماما .

هذا الموضوع إذا بحثته بحثاً علميا كما ابتدأت فيه دون أن تقتنع ولكن عقلية العامة يوافقها هذا الأسلوب تماما . هذا وقد وضع الإخوان لرسائلهم مقدمة أشبه بالفهرست بينوا فيها بإيجاز عدد الرسائل و الموضوعات التي تعرض لها بحثهم (وهذه فهرست رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفا وأهل العدل وأبناء الحمد يجمل معانيها وماهية أغراضهم فيها :وهي

(١) رسائل ج٤ ص ٢٣٤
(٢) الرسائل مقدمة زكي باشا
(٣) رسائل ج٤ ص١٠٠

اثنتان وخمسون رسالة [١] في فنون العلم وغرائب الحكم وطرائق الآداب وحقائق المعاني من كلام الخلصاء الصوفية صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا في البلاد وهي مقسومة على أربعة أقسام :فمنها رياضية تعليمية ومنها جسما نية طبيعية ومنها نفسانية عقلية ومنها ناموسية إلهية).ثم اخذوا يبينون موضوع كل قسم: فالرياضيات تشمل العدد والهندسة والموسيقى والفلك والصنائع والمنطق بمقولاته وعباراته وبراهينه والطبيعيات يتكلمون فيها على الهيولى والصورة والسماء والعالم والكون والفساد وكيفية تكوين المعادن وفي النبات والحيوان والرسائل النفسانية تبحث في المبادئ العقلية وفي البعث والصور والنشور والقيامة والإلهية تبحث في الآراء والمذاهب وبيان اعتقاد إخوان الصفاء وكيفية أنواع السياسات وماهية السحر والعزائم .كما يقولون عن كثير من الرموز والكنايات التي امتلأت بها رسائلهم (وتليها الرسالة الجامعة .... المشتملة على حقائقها بإسرارها .. إذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها والمدخل إليها والأدلة عليها والأنموذج منها...هي منتهى الغرض لما قدمناه [٢] ومثلهم في ذلك - على حد تعبيرهم - كمثل بستاني له حديقة لم تر العين مثلها حسنا وإبداعا، وأراد لكرمه أن يدعو الناس إليها والتمتع فيها فأخذ نماذج من أزهارها وريحانها وفاكهتها ووقف أمام بابها يعرضها على الناس، حتى إذا تذوقها وعرفوا مزاياها واشتاقت نفوسهم لدخول البستان أفسح لهم الطريق كي يتمتعوا وما شاءوا يتلذذوا ويطربوا ويختم إخوان الصفاء كل رسالة بنصيحة للأخ البار الرحيم حتى يتفهم غرضها ويعرف أسرارها ، ثم إنهم كانوا يكثرون من القصص على لسان الحيوان. ويدلون بأشياء لو صرحوا بها لفضح أمرهم وانكشف سترهم. ومهما يكن الأمر فرسائلهم سهلة الأسلوب خالية من السجع والمحسنات البديعية، واضحة العبارة أحيانا، غامضة في الغالب من حيث المقصد والغاية، وقد ذكرنا في المقدمة أن الغرض من تآليفهم هذه الرسائل بث تعاليمهم السرية وإيجاد طبقة من الشعب مثقفة تقود الرأي العام إلى أغراضهم السياسية وهي قلب نظام الدولة.

آراؤهم الخيالية :

لا نريد أن نتعرض في هذا البحث إلى كل ما تناوله إخوان الصفا في رسائلهم من خرافات، وإنما الذي يهمنا أن نضرب أمثلة على إغراقهم في الخيال أحيانا.

فأنت تراهم مثلا في رسالة العدد، وعلى العموم في الرياضيات يتبعون الفيثاغورثيين، فلا يهتمون في البحث في علم الحساب كما يهتمون بتبيان خواص الأعداد والكلام عن الموسيقى

---

(١) اختلف في عدد الرسائل ولم نقف على حجة ثابتة في هذا الموضوع ولكن يظهر لنا أن عددها واحد وخمسون ، وهناك رسالة جامعة تحوي زبدة الرسائل . بيد أنها لا توجد في المجموعات التي بين أيدينا ، وقد أشرنا في المقال السابق إلى أن الأستاذ كازانوفا وجد رسالة بظنها الجامعة فارجع الى ما كتبت هناك .

(٢) رسائل ج١ ص ١٩

الأفلاك ...الخ : وهاك مثلا على ذلك : (اعلم بأن كون العدد على أربع مراتب آحاد وعشرات ومئات وألوف ليس أمرا ضروريا لازما لطبيعة العدد ، لكنه أمر موضعي رتبته الحكماء باختبار منهم ، وإنما فعلوا ذلك لتكون الأمور العددية مطابقة لمراتب الأمور الطبيعية. وذلك أن الأمور الطبيعية أكثرها جعلها البارئ جل ثناؤه مربعات منها :الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ومثل : الأركان الأربع التي هي النار والهواء والماء والأرض ، مثل الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، مثل الأزمان الأربعة التي هي البيع والصيف والخريف والشتاء، ومثل الجهات الأربعة ...[١] الخ).

والواحد من الأعداد هو أصل كل الأعداد هو أصل كل الأعداد ، وعنه تصدر بالتكرار ويذهبون مذهب الفيثاغورثيين في ذلك وهو أن الواحد أصل الوجود وإن حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة: (واعلم أن البارئ جل ثناؤه أول شيء اخترعه وأبدعه من نوره جوهر بسيط يقال له العقل الفعال كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار ثم أنشأ النفس الكلية الفلكية من نور العقل ، كما أنشأ الثلاثين بزيادة الواحد على الاثنين : ثم أنشأ الهيولى الأولى من حركة التنفس كما أنشأ الأربعة بزيادة الواحد على الثلاثة ثم أنشأ سائر العدد من الأربعة بإضافة ما قبلها إليها)[٢]

ومن ذلك قولهم: (إن منفعة الشكل المتسع تسهيل الولادة إذا كتب على خزفيين لم يصبهم الماء وعلقتهما المرأة التي ضربها الطلق)[٣].

ويقولون في نشأة الفلسفة علم الملك : (إن رمز المثلث الحكمة وهو إدريس النبي عليه السلام صعد إلى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة حتى شاهد جميع أحوال الفلك : ثم نزل إلى الأرض فخبر الناس بعلم النجوم ، قال تعالى (ورفعناه مكانا عليا)[٤]).

ويعتقدون بتأثير الكواكب في السعد والنحس (الكواكب السبعة السيارة اثنان منها نيران ، واثنان نحسان ، وواحد ممتزج ، أما النيران فالشمس والقمر ، والسعدان المشتري والزهرة والنحسان زحل والمريخ ، وأما الممتزج فعطارد)[٥].

وأكثر من ذلك خرافة قولهم : (اعلم يا أخي أن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك السماوات، خلقهم الله في أفلاكه كما أن الأرض هم خلفاء الله في أرضه)[٦] ويعتقدون أن لحركات الأفلاك والكواكب نغمات وألحانا طيبة لذيذة مفرحة لنفوس أهلها الذين هم الملائكة : فإن قائل : (لا بد إذا أن يكون لهم شم وذوق ولمس) قلنا : (إن هذه حاجة الحيوان الآكل للطعام والشارب للشراب، أما هم فغذائهم التسبيح ، وشرابهم التهليل ، وفاكهتهم الفكر والزاوية واللذة والفرح ... ويقال إن

(١) رسائل ج١ ص ٢٧
(٢) رسائل ج١ ص ٢٩
(٣) رسائل ج١ ص ٧١
(٤) رسائل ج١ ص٩٢
(٥) رسائل ج١ ص ٩٦
(٦) رسائل ج١ ص ٩٨

فيثاغورث الحكيم سمع بصفاء جوهره وذكاء قلبه نغمات الأفلاك والكواكب ، فاستخرج بجودة فطرته أصل الموسيقى ونغمات الأفلاك وهو أول من تكلم في هذا العلم)[١].

ولولا خوف الإطالة لذكرت كثيرا من هذه الآراء الخرافية، وحسبك أن تقرأ رسالة السحر والطلاسم والتعاويذ، وكيف يحاولون معرفة الجنين وقدوم الرسول ومعرفة الجنين ومعرفة الكتاب قبل فضه واللص وماذا سرق ومعرفة الحروب وأسبابها...الخ[٢]

مراتب الوجود:

(اعلم يا أخي أن الله تعالى لما كان تام الوجود كامل الفضائل ملما بالكائنات قبل كونها قادرا على إيجادها متى شاء لم يكن من الحكمة أن يحدث تلك الفضائل في ذاته ، فلا يجود بها ولا يفيضها ؛ فإذا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض من عين الشمس النور والضياء)[٣].

قد استمر هذا الفيض فنشأ عنه العالم،وأنت ترى أنهم يأخذون بنظرية الفيض التي ابتدعتها الأفلاطونية الحديثة ، وأنهم يقولون بالعناية الإلهية التي وضحها ابن سينا فيما بعد بقوله : (لما كان المبدع الأول يعلم لذلك نظام الخير في الوجود المطلق كان علة للخير والكمال اللذين فاضا على الوجود عندما فاض الوجود نفسه ، فانتقل بذلك نظام الخير إلى العالم بحسب القدر الممكن لهذا العالم)[٤].

والعالم عندهم على الترتيب الآتي :

١- العقل الفعال: وهو جوهر بسيط روحاني أبسط من النفس وأشرف منها قابل لتأييد الباري تعالى علام بالفعل.

٢- النفس الكلية : وهي جوهرة بسيطة روحانية علامة بالقوة فعالة بالطبع قابلة فضائل العقل بلا زمان ، في الهيولى بالتحريك لها.

٣- الهيولى الأولى : وهي جوهرة بسيطة روحانية معقولة غير علامة ولا فعالة بل قابلة اثار النفس بالزمان منفعلة لها.

٤- الطبيعة الفعالة: وهي قوة من قوى النفس الكلية سارية في جميع الأجسام محركة مدبرة لها وتسمى النفوس الجريئة أو الملائكة.

٥- الجسم المطلق : ذو الطول والعرض والعمق وهو الهيولى الثانية .

٦- عالم الفلك : وسنتكلم عليه بالتفصيل فيما بعد

---

(١) رسائل ج١ ص ١٥٣

(٢) رسائل ج١ ص ٢٤١

(٣) الرسائل ج٣ ص ١٩٧

(٤) كتاب النجاة لابن سينا وفيه ملخص كتاب الشفاء

٧- العناصر السفلى : كالنار والهواء والماء والأرض .

٨- المعادن والنبات والحيوان المكون من العناصر السابقة.

وقد فاضت كلها من الله، ولكن وقف الفيض بعد الجسم المطلق الذي لم يفض منه جوهر آخر لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية [١]

عالم الأفلاك :

الأفلاك أجسام كرية شفافة مجوفة، وهي تسعة أفلاك مركبة بعضها في جوف بعض كحلقة البصلة. وهناك كرتان ليستا من الأفلاك، وهما كرة الهواء وكرة الأرض، فيكون المجموع إحدى عشرة كرة.

وتقع الشمس في الوسط، وفوقها خمس كرات وتحتها خمس: فالتي فوقها على الترتيب... الزهرة وعطارد، والقمر، ثم كرة الهواء، ثم كرة الأرض التي هي المركز، وليست مجوفة ولكن متخلخلة والشكل الكرى أفضل الأشكال كلها، وحركتها تامة، أفضل الحركات، والفلك المحيط ألطف الأجسام وأشدها روحانية وأشفها نورا لقربه من الهيولى الأولى .

والأرض أغلظ الأجسام كلها وأشدها ظلمة لبعدها عن الفلك المحيط، والقمر هو السماء الأولى وعطارد السماء الثانية وهكذا تنتهي من السماوات السبع التي خرها زحل ، أما فلك الكواكب الثابتة فهو الكرسي الذي وسع السماوات والأرض، والفلك المحيط هو العرش العظيم الذي يحمله يومئذ ثمانية[٢].

هل قالوا بالنشوء والارتقاء :

ذهب بعض الباحثين إلى أن إخوان الصفا كانوا يقولون بنظرية النشوء والارتقاء، والواقع أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن هذا، بيد أن لهم نظرية خاصة في تدرج الأجسام المولدة:

(واعلم يا أخي بأن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان كما أن أول مرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء، فأدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة فقط كالحلزون والديدان التي تتكون في الطين وقعر النهر...)

فهذا النوع حيوان نباتي لأن جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات، ويقوم على ساقه، ولما كان جسمه يتحرك حركة اختيارية كان حيوانا.

(أما رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسان فليست من وجه واحد، ولكن من عدة وجوه، فمنها ما قارب رتبة الإنسان بصورة جسده كالقرد ، ومنها ما يقربها بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه ، ومنها كالطائر الإنساني أيضا ، ومثل الفيل في ذكائه ، وكالببغاء والهزار

(١) ج٣ ص ١٩٨ - ١٩٩

(٢) ج٢ ص ٢٢ رسائل

ونحوهما ، ونهل النحل اللطيف الصنائع ...إلى ما شاء كل الأجناس . فهذه الحيوانات في آخر مرتبة الحيوان مما يلي رتبة الإنسان لما ما يظهر فيها من الفضائل الإنسانية [١])

ولا شك أن هذه النظرية بعيدة كل البعد عن مذهب النشوء والارتقاء الحديث، إذ جعلوا الفيل والنحل والطائر قريبة الشبه بالإنسان وفي أعلى مراتب الحيوان، ولعلنا إذا أخذنا رأيهم من الناحية العضوية البيولوجية توجد عندنا شبهة للقول بمذهب النشوء ، فالحلزون حيوان نباتي ، والقرد متفرعان من أورمة واحدة، وهم يعتقدون أن النبات متقدما على الإنسان لأن وجوده لخدمته ومنفعته [٢]

- ٤ -

النفس الإنسانية:

تستمد النفس الإنسانية قوتها من النفس الكلية، ومراتب النفوس ثلاثة أنواع: منها مرتبة الأنفس الإنسانية، و منها ما فوقها و ما دونتها. و المعروف من هذه النفوس خمس، فالتي فوقها اثنتان: رتبة الملكية، رتبة القدسية، فتربة الملكية هي رتبة الحكمة، و رتبة القدسية هي رتبة النبوة.

والتي دونها اثنتان: النفس الحيوانية و النفس النباتية. ومن الأخلاق و القوى ما ينسب إلى النفس النباتية الشهوانية، ومنها ما ينسب إلى الحيوانية الغضبة، ومنها ما ينسب إلى النفس الإنسانية الناطقة، ومنها ما ينسب إلى النفس العاقلة الحكمية و منها ما ينسب القدسية[٣] . فالمنسوب إلى النباتية: الغذاء، و الرغبة في المشروب، والحرص في طلب الشهوات.

و المنسوب إلى النفس الناطقة: شهوة العلم و المعرفة، و العز و الرفعة.

و المنسوب إلى الملكية و القدسية: شهوة التقرب لربها و الزلفى لديه.

و السبب في وجود هذه الغرائز بنفوسنا أنه يوجد في المعلول سبب أو غير ذلك فهي كما في الحيوان و النبات، و الله الذي هو علة الوجود حي باق لا يتعرض له فناء، و لهذا صارت الموجودات محبة للبقاء كارهة للفناء، و لهذا فالسعادة هي أن يبقى كل موجود أطول ما يمكن على أفضل حالاته و أتم غاياته لا ينقصه شيء، حتى يكون شبيها بالإله.

الفضيلة:

إذا ظهرت من الطبيعة هذه الشهوات المركزة في الجبلة، و كانت على ما ينبغي من أجل ما ينبغي سميت خيرا، و متى كانت بخلافه سميت شرا . و إذا فعل الإنسان ذلك باختياره وإرادته على

---

(١) الرسائل ج٢ ص ١٤٤

(٢) رسائل ج٢ ص ١٥٥

(٣) ج٢ من الرسائل ص ٢٤٠ ...٢٤١ وترى في تقسيم النفس وأثر ذلك في الأخلاق آراء أفلاطون مرددة.

ما ينبغي، من أجل ما ينبغي، كان صاحبه محمودا ؛ ومتى كان بخلاف ذلك كان سفيها جاهلا [١] وكل نفس خادمة للنفس التي أعلى منها، وصلاحها في امتثالها لأوامرها [٢].

قوى النفس :

وللنفس الإنسانية قوى كثيرة تساعدهم على أن تصير عقلا بالفعل ، وأفضالها القوى المفكرة لأنها تؤدي إلى المعرفة ، والمعرفة لباب حياة النفس . ونفس الطفل في أولها صحيفة بيضاء لم ينقش عليها شيء ، وكل ما تحمله إليها الحواس الخمس تتناوله القوة التخيلية وتجمعه ، ومجرى هذه القوة مقدم الدماغ ، ثم تدفعه إلى القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ ، وهي تميز بعضه من بعض وتعرف الحق والباطل ، ثم تؤيده إلى الحافظة التي مجراها مؤخرا الدماغ . و القوة الناطقة تعبر عما في النفس بالألفاظ للسامعين، أو تقيدها بصناعة الكتابة، فيكون للنفس خمس حواس باطنية تقابل الخمس الظاهرة [٣].

الموت و الحياة:

الإنسان مكون من جسم و نفس روحانية، و الجسم يريد البقاء في الدنيا، و النفس الروحانية تريد الرحيل إلى الآخرة [٤]. و على هذا فالموت و الحياة نوعان : جسدي و نفساني . و الحياة الجسدية ليست شيئا سوى استعمال النفس الجسد، و الموت الجسدي ليس شيئا سوى استعمال النفس الحواس . و ليس النوم شيئا سوى تركها استعمالها، أما النفس فحياتها ذاتية لها . و ذلك أنها بجوهرها حية بالفعل علامة بالقوة فعالة في الأجسام و الأشكال ، و موتها و جهالتها بجوهرها و غفلتها عن معرفة ذاتها، و ذلك عارض لها من شدة استغراقها في بحر الهيولي،، فكما أن ولادة الطفل ليست شيئا سوى خروجه من الرحم، فكذالك ولادة النفس ليست شيئا سوى مفارقة النفس إياه، و النفس لا تعرف السعادة إلا بعد ما تفارق الجسم، و على ذلك فالموت حكمة لأنه سبب لحياة أبد[٥]

و بعد مفارقة النفس الجسد تبقى الشقية هائمة بهمومها معذبة دون فلك القمر، سانحة في بحر الهيولية، هاوية في عالم الكون و الفساد مع أبناء جنسها من الأمم الحالية إخوان الشياطين و جنود إبليس أجمعين (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وهذه هي جهنم عند إخوان الصفا، و نراهم يتبعون فلاسفة اليونان و المسلمين في قولهم يحشر الأرواح دون الأجساد، و أن

---

(١) رسائل ج٢ ص ٢٤٧ وهذا تأثر إخوان الصفا بمذهب أرسطو في نظرية الوسط.

(٢) يمثل هذا رأي أفلاطون في خضوع الشهواني والجزء الشريف من النفس للعقل وأن صلاحهما في امتثال أوامره.راجع R.L netteship في كتابه: Lecture son the Requblic of Plato

(٣) رسائل ج٢ ص ٣٤٧ ـــ ٣٥٠

(٤) ولهذا يقول إخوان الصفاء إن أعمال الإنسان أتت مثنوية متضادة كالموت والحياة والنوم واليقظة والعلم والجهل ... الخ فالصفات الرديئة تنسب للجسم والجنة تنسب للروح

(٥) الرسائل ج٣ ص ٦١

العذاب عذاب الروح لا الجسد. ولقد رد عليهم الغزالي في تهافت الفلسفة ردا لا بأس به . أما النفوس الخيرة عند إخوان الصفا فتصعد إلى علم الأفلاك و تصير ملائكة بالفعل، و هذه هي الجنة عندهم، و الثواب هنا ثواب روحي لا جسدي.

و لقد فصّل الفارابي هذه النظرية في مدينته الفاضلة ووضّحها ابن سينا في النجاة و الشفاء.

خلود النفس:

يعتقد أخوان الصفا اعتقاداً جازماً بأن الأجساد حبس للنفوس أو حجاب لها أو صراط أو برزخ، و النفوس تعلم تمام العلم بأن لها وجود آخر خيرا و أبقى و ألذ و أحسن من هذا الوجود و البقاء الذي مع الجسد. فإذا استتمت الأنفس الجزئية و كملت صورتها و معارفها، و استيقظت من هذه الغفلة و أحست بغربتها في هذا العالم الجسماني و أنها في أسر الطبيعة تائهة في بحر الهيولية، و عرفت فضيلة جوهرها و نظرت إلى عالمها، و شاهدت تلك الصور الروحانية المفارقة للمادة، إذا أدركت هذا كله هانت عليها مفارقة الجسد و سمحت بإتلافه و في هذا سعادتها [١]

و موت النفس هو جهلها بجوهرها و غفلتها عن معرفة ذاتها، و النفوس السيدة هي التي قطعت أيام الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة و سارت سيرة عادلة ، و تخلقت بأخلاق جميلة، و بحثت عن الحقائق المعقولات وأحكمتها . فإذا ما بلغت آخر العمر اشتاقت إلى مفارقة هذه الحياة ، فلو لم يكن الموت لما أمكنها الصعود إلى ملكوت السماء ولا الوصول إلى الجنة[٢]

وعلى العكس من ذلك نفوس الأشقياء فإنها بما اعتادته من لذات هذه المحسوسات ، وقد منعت الوصول إليها والعودة للجسم تقول : (يا ليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) وتبقى متألمة بذاتها معذبة من سوء عاداتها دون فلك القمر .

وعلى هذا فالنفوس البشرية الخيرة هي الملائكة بالقوة ، فإذا فارقت أجسادهم كانت الملائكة بالفعل.

والنفوس الشريرة شياطين بالقوة فإذا فارقت أجسادهم كانت شياطين بالفعل[٣]

أما يوم القيامة ونهاية العالم فيكون بمفارقة النفس الكلية للعالم ورجوعها إلى الله[٤].

الله والعالم:

لما كان الله تام الوجود كامل الفضائل عالما بالكائنات قبل كونها ، قادرا على إيجادها متى شاء ، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ويفيضها، فإذا بواجب

---

(١) رأى اخوان الصفاء في النفس وخلودها ورجوعها بعد إتمام كمالها في هذه الحياة الدنيا هو الرأي الذي أوضحه ابن سينا في قصيدته: *هبطت إليك في المحل الأرفع ورقـــاء ذات تدلل وتمتع*

(٢) رسائل ج٣ ص ٦١

(٣) رسائل ج٣ ص ٩٤

(٤) رسائل ج٢ ص ٤١

الوجود قد أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض النور والضياء نم عين الشمس[١].

والله سبحانه لا يباشر الأفعال بذاته ، بل يقتصر على الأعمال الكلية ، أما التفصيلات فيدعها لملائكته الموكلين (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) ، ويقول تعالى كذلك : (وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

ونسبة الأفعال التي تجري على أيدي عباده إلى البارئ سبحانه كنسبة أفعال الملوك إذا قيل بني فلان الملك مدينة كذا ، وحفر نهر كذا فهؤلاء الملوك قد أمروا فقط ، أما مباشرة العمل فتركت لغيرهم [٢]

وعلم الله تعالى محيط بما يحوي العقل من المعقولات ،والعقل محيط بما تحوي النفس الكلية من الصور ، والنفس محيطة بما تحوي الطبيعة من الكائنات ، والطبيعة بما تحوي الهيولى من المصنوعات [٣].

تأثير أخوان الصفا:

قد بينا سابقا تلك الدعاية المنظمة التي قام بها إخوان الصفاء لحمل الناس على دخول مذهبهم ، وقد أدى نشر هذه الرسائل الأنفة الذكر إلى نشر الفلسفة ومبادئها، واشتغال الناس بها ، إذ كتبوا بلغة سهلة تناسب عقلية الجمهور ومزجوها بالدين مقتبسين كثيرا من آي القرآن الكريم حتى لا ينفرون منها، ووضعوا فيها المبادئ عامة من كل فن، فكانت من الوجهة العلمية موسوعة احتذى حذوها كثير من المؤلفين فيما بعد . وقد حملت الرسائل على رجال الدين والفقه، وأدى ذلك إلى اشتغال كثير من هؤلاء بالرد عليهم وتكفيرهم كابن تيمية وابن حجر وغيرهم. ثم إن رسائل إخوان الصفاء كانت أول محاولة للتوفيق بين الدين والفلسفة ، تلك اللحظة التي اقتفاها الفارابي وابن سينا وابن رشد فيما بعد ،والتي تأثروا فيها بإخوان الصفا كما تأثر هؤلاء بالأفلاطونية الحديثة بعد أن تنصرت ونقلها السريان إلى لغتهم محاولين أن يتخذوا منها دعامة لتأييد مذاهبهم المتعددة ...

والرسائل كانت دستورا لطائفة الإسماعيلية كما رأينا من قبل فيها رموز وإشارات وإصلاحات لا يعرفها إلا الأتباع المخلصون .

على أن هناك طائفة ممن اشتهروا بالعلم والفلسفة قد تأثروا بهم ومنهم : أبو حيان

---

(١) رسائل ج٣ ص ١٩٧. وأنت ترى من هذا أنهم يقولون بنظرية الفيض على طريقة الأفلاطونية الحديثة وقد تكلمت عنها انفا .

(٢) رسائل ج٢ ص ١٠٩ ، وأنت ترى كيف أنهم يؤولون ظاهر ايات القرآن أغراضا أخرى غير التي يفهمها الناس وقولهم بأن الله لم يخلق العالم مباشرة يعارض العقيدة الإسلامية ، وقد رد عليهم الغزالي في تهافت الفلسفة .

(٣) رسائل ج ٢ ص ٩٨.

التوحيدي ، وقد عرفنا إنه كان الصلة بين جماعة البصرة وجماعة بغداد ، وقد اتهم بالزندقة من أجل ذلك ، حتى جاء في طبقات الشافعية ما يأتي : ((زنادقة الإسلام ثلاثة :ابن الراوندي ، وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء المعري)).

ومنهم يحيى بن عدي [١] المترجم المشهور والذي كان أحد أعضاء فرقة بغداد ، وقد نشرت له مجلة اللغات السامية الأمريكية كتابا في تهذيب الأخلاق تشبه تعاليمه ما عند لإخوان الصفاء في كثير من الموضوعات ،ومنهم كذلك جماعة بغداد ورئيسهم السجستاني أبو سليمان وقد رأينا كيف أن أبا حيان قد أخذ رسائل إخوان الصفاء وعرضها عليه ، وعرفنا ما قاله أبو العلاء المعري فيهم عند مغادرته بغداد وكيف سماهم إخوان الصفاء .

نعم إن الغزالي يعرض بفلسفة إخوان الصفاء ، ويعدها فلسفة عامة من الناس ، بيد أنه لا يتحرج والاقتباس منها ،وهو مدين لفلسفتهم بأكثر مما يتعرف [٢].

❖ ❖ ❖

تعليق على البحث
(أبو العلاء) و (إخوان الصفاء)؛

نقل الأستاذ عمر الدسوقي قول الدكتور طه حسين بك أن (أبا العلاء المعري)) قد اجتمع بإخوان الصفاء إبان إقامته في بغداد ، وقد استدل الأستاذ الدكتور علي ذلك بالبيتين :

كم بلدة فارقتها ومعاشر يذرون من أسف علىّ دموعا

واذا أضاعتني الخطوب فلن أرى لوداد ((إخوان الصفاء)) مضيعا

لورود ((إخوان الصفاء)) فيهما.

وقد كتب الأستاذ سليم الجندي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق مقالا في مجلة المجمع المذكور : (العدد الثامن ، المجلد السادس عشر ، ٩٤١) بين فيه التناقض الذي وقع فيه للدكتور فيما ذهب إليه ، ونفى أن يكون أبو العلاء قد اجتمع بإخوان الصفاء مستدلا بأمرين :

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد ولد في تكريت سنة ٨٩٣ م وتوفي في بغداد سنة ٩٧٤ م وكان رئيسا لأساقفة الكنيسة اليعقوبية وممثلا لنشاط هذه الطائفة في المساهمة والنقل والترجمة

(٢) أنظر كتاب المنقذ من الضلال ص ١٣ ١٤ طبعة مصر عام ١٣٠٩ ودي بور ص ١١٣ ترجمة أبي ريدة ، ورسالة الطيباوي التي اشرنا إليها انفا

الأول : أن وقوع كلمة (إخوان الصفاء) في هذين البيتين ليدل دلالة واضحة على اجتماع أبى العلاء بهم، فقد وردت في شعر كثير من الشعراء الجاهلين والإسلاميين والعباسيين : كالخنساء وأبي حبال البراء الفقعسي ، ويسار بن إسماعيل ، وعبد السلام بن رغبان، وابن الرومي، وصريع الغواني ، وابن المقفع (في كليلة ودمنة ، باب الحمامة المطوقة) ، وإنما أرادوا إخوان الصفاء (الجمعية المعروفة) وإنما أرادوا إخوان المودة الصافية الخالصة .

والأمر الثاني : أن معرفة سبب قول هذين البيتين تنفى ما ذهب إليه الدكتور ، فقد روى ياقوت في معجم الأدباء (ج١ ص١٧٥) عن أبي الوليد الدر بندي قال : أنشدني أبو العلاء التنوخي في داره عند وداعي إياه (وذكر الأبيات ...) هذا المقال أشياء أخر ذات شأن يحسن الرجوع إليها .

صلاح الدين المنجد